نسلكه.

وكنت اومل ان احرز ثقة الرجل المجهول الهوية شيئاً فشيئاً. ورغم غمزات عينيّ دليلي فقد استرسلت في الحديث حول قطاع الطرق واللصوص بلهجة لاتخلو من احترام وتحفظ. في ذلك الزمن كان في اندلوسيا رجل عصابات شهير يدعى «خوزيه ماريا» تدور انباء وقائعه على كل شفة ولسان. حدثت نفسي قائلاً «ماذا لو كنت الآن برفقة خوزيه ماريا»! رحت اروي الوقائع التي سمعتها عن بطولاته فضلاً عما عزي اليه من مدح وثناء معبراً عن اعجابي بكرمه وشجاعته.

اجاب الغريب بكل برود:

- خوزيه ماريا لايستحق كل هذه الدرجة من المبالغة.

أكان حكمه هذا على نفسه؟ ام قصد ان يبدي تواضعاً؟ تساءلت في سري، ذلك لان دراستي الدقيقة لصاحبنا اقنعتني بان سيماه تنطبق على اوصاف خوزيه ماريا التي رأيتها مثبتة باعلانات في مداخل كثير من مدن اندلوسيا.

رجعت لنفسي قائلاً:

- اجل انه هو ولاشك: انه هو، بشعره الاشقر وعينيه الزرقاوين وفمه الواسع واسنانه الجميلة ويديه الصغيرتين وقميصه الشفاف وصداره المخملي ذي الازرار الفضية وحذاء ركوبه الجلدي وجواده الاشقر. انه هو بلا ريب. لكن ألا فلنجاره في تخفيه.

وصلنا الفندق وبدا كما وصفه لي تماماً. كان شر ما وقعت عيناي عليه من الفنادق. فهو قاعة واسعة استعملت كمطبخ وغرفة طعام وغرفة نوم في آن واحد. اضرمت النار في موقد حجري يتوسط القاعة، وكان دخان النار السائب يتصاعد بحرية في جوّ القاعدة فينفذ قسم منه الى الخارج من كوة منقورة في السقف. اما سائر الدخان فيبقى في جو الغرفة متكاثفاً كالغيوم على ارتفاع بضع اقدام من الارضية. هناك ابسطة بالية خمسة قد فرشت في الارض على امتداد الجدار لينام المسافرون عليها. وعلى بعد عشرين خطوة من الفندق، اعني من الغرفة التي وصفتها -قام شبه سقيفة هي بمثابة مربط للحيوانات. ولم يكن في هذه البقعة الخلوية الساحرة من البشر سوى عجوز شمطاء وصبية بين العاشرة والحادية عشرة لون بشرتيهما بسواد الفحم، اما ثيابهما فرثة وهنا شعرت بهاتف داخلي يصرخ من اعماقي:

- اهذا كل ما بقي من سكان «موندا» الجميلة العريقة؟ ايه ياقيصر! ايه يا سكستوس بومبي[٢]! لو عدتما الى الحياة فكم سيكون ألمكُما عظيماً؟

ما ان رأت العجوز زميل السفر حتى اطلقت صرخة الدهشة

٢- المقصود بالاول، يوليوس قيصر (١٠١-٤٤ق.م) الجنرال والسياسي الروماني الشهير وبالثاني، سكتس پومپي (١٠٦-٤٨ق.م) نظيره القائد ورجل السياسة. وقد تعاصرا وتواصلت بينهما حبال الود حتى تصاهرا الا انهما اختلفا اخيراً جرت وقائع حربية عدة بينهما اهمها في اسبانيا حيث تحققت ليوليوس قيصر فيها الغلبة (انظر الخارطة).

وهتفت:

- آه ياسنيور دون خوزيه!

فتهجم وجهه ورفع يده باشارة آمرة اوقفت لسان العجوز في الحال. التفتُ الى دليلي واومأت اليه بما معناه بانني غير مستعد لسماع شيء عن الرجل الذي انوي المبيت معه، وفاق العشاء حدسي. مد لنا على طاولة صغيرة ارتفاعها قدم وكان يتألف من ديك قر مشوي تفوح منه رائحة التوابل والافاويه ثم فلفل اخضر بالزيت ثم «الكاسباشو» وهو نوع من (صلصة) الفلفل: ثلاثة اصناف جريفة كثيرة التوابل الجأتنا الى خمرة «مونتلاّ اللذيذة فشربنا منها مقداراً كبيراً.

استلفت نظري عقب العشاء طنبور معلق على الحائط (تكاد لاتخلو بقعة في اسپانيا من هذه الالة الموسيقية) فسألت الصبية القائمة بخدمتنا:

هل تحسن الضرب عليه؟ فأجابت:

- كلا! لكن دون خوزيه ماهر في الضرب واي مهارة!

فالتفت اليه وقلت:

- اتتكرم باسماعي اغنية؟ اني مغرم بموسيقاكم الوطنية.

- لا اجد سبباً يبرر رفض طلب لرجل مهذب مثلك. قدم لي لفائف تبغ فاخرة!

قال هذا وتناول الطنبور. كان صوته اجشّ لكنه رخيم حزين النبرة فيه سحر وجاذبية لكني لم افهم كلمة واحدة من اغنيته

فقلت له:

- ان لم تخني الذاكرة فالاغنية التي اسمعتنيها ليست اسبانية بل شبيهة باغاني «الزورزيكوس Zorzicos) التي سمعتها في البروڤانس[٣] اما الكلمات فهي «باسكية Basque»[٤] كما ارى.

فوجم دون خوزيه ثم اجاب «صدقت» ووضع الطنبور وشبك يديه واخذ يحدق في رماد النار مفكراً واجماً ولما انتشر ضوء المصباح الموضوع فوق المائدة على تقاطيع وجهه النبيلة البربرية تذكرت بها فوراً سحنة شيطان ملتون[٥]. ربما كان رفيقي يحن مثله الى وطنه الذي تركه مرغماً الى منفى يعض فيه بنانه تكفيراً عن ذنب أتاه؟ حاولت وصل ما انقطع من الحديث عبثاً، فقد ظل صامتاً غارقاً في افكاره السوداء، وكانت العجوز الدرداء قد انسحبت الى احدى زوايا الغرفة واشتملت بلحاف بال ممدود فوق احد البسط وحذت الصبية حذوها ولاذت بذلك الركن المخصص للجنس اللطيف. ونهض دليلي وطلب مني مرافقته الى

٣- ان البلاد المشهورة بهذا الاسم provance الواقعة بين اسبانيا وفرنسا تشيع فيها رطانة Fuero غريبة او بكلمة اخرى ان اقاليم «آلافا وباسكي وكوبنزكوا» وجزء من اقليم النافار تتكلم اللغة الباسكية. (المؤلف)

٤- الباسك هو اقليم فرنسي اسباني يقع على سفح جبال البيرينه ويتاخم اقليمي النافار وغاسقوني. وسكانه اناس شديدو المراس ينفردون بعادات ولغة خاصة والبيريه هي غطاء رأسهم القومي ويعرفون بها.

٥- في ملحمة «الفردوس المفقود» الشعرية لجون ملتون الشاعر الانكليزي ملاك غضب عليه الله فمسخه شيطاناً وطرده من الفردوس.

المربط وبدا لي كأن دون خوزيه استفاق من حلمه فجأة اذ انه انتفض وسأل الدليل بصوت خافت:

- الى اين؟

- الى مربط الخيل.

- ان الخيل قد علفت. ولابد وان السيد سيسمح لك بالنوم معنا فما الداعي؟

- اخشى ان يكون جواد السيد مريضاً واني لارغب في ان يراه بنفسه ليشير علي بما يجب عمله.

لاشك في ان انطونيو كان يريد ان يُسارّني وحدي، الا اني ما كنت لارغب في اثارة شكوك دون خوزيه ويجمل بمن كان في محلي ان يظهر اعظم الثقة. لذلك اجبت انطونيو باني مطمئن الى حالة الجواد وان النوم يغالبني، فمضى لطيته وحيداً لكن دون خوزيه لحق به الى المرابط وعاد باسرع مما ذهب قائلاً لي:

- ان الخيل على احسن حال لكن الدليل مدفرعاً بتقديره العظيم لقيمة الحيوان- شرع يدعك جسمه بصداره لينصحه عرقاً.

وقال «انما يخيل له بان الدليل سيقضي ليلته في عمله البهيج هذا».

كنت قد استلقيت بعد ان احكمت لف معطفي حول جسمي خشية ان يتماسّ بالبساط، اما دون خوزيه فبعد ان اعتذر لتجاسره على النوم الى جنبي، وضع كبسولة جديدة في غدارته

وبحث لها عن موضع قريب لتكون في متناول يده ووقع اختياره على خِرجه الذي استخدمه كوسادة فدسها تحته واضطجع قرب الباب، وبعد خمس دقائق تبادلنا تحية الليل واخذ كل منا يعالج النوم.

خيل لي ان تعبي واعيائي العظيمين كفيلان بان يسلماني الى نوم عميق في هذا الجحر القذر، لكني استفقت بعد ساعة من اول غفوة وقد شاعت في جسمي حكة أليمة مؤذية ما ان ادركت سرها حتى هببت من فراشي مصمماً على ترك هذا السقف البغيض وقضاء ليلتي تحت نجوم القبة الزرقاء اللامعة. وصلت الى الباب وانا اسير على رؤوس اصابعي وتخطيت جسم دون خوزيه الذي كان يغط في نومه كالبرئ الطاهر الضمير. نفذت خطتي بكل دقة فخرجت دون ان يستيقظ، وكانت صُفّة كبيرة قريبة من الباب فبذلت جهدي لاجعلها لائقة بقضاء ليلتي مستلقياً عليها.

ما كدت اعاود اغماض عيني حتى بدا لي شبحا جواد وانسان يمران من امامي خطفاً وبسكون تام فاستويت على رجلي وميزت في شبح الانسان دليلي انطونيو، وما لبثت ان غادرت فراشي ولحقت به مدفوعاً بدهشتي لرؤيتي اياه خارج المربط في تلك الساعة من الليل. التقيته وجهاً لوجه فبادأني بالوقوف ولما تبينني سألني بصوت خفيض:

- أين هو؟

- في الفندق نائم لم تزعجه البراغيث. لماذا أخرجت الجواد؟

وهنا حانت مني التفاتة فرأيت انطونيو قد عمد على شد قطع من الخرق البالية حول اقدام الجواد كيلا تسمع سنابكه حين اخراجه من المربط.

قال انطونيو:

- بربك اخفض صوتك، انك لاتعرف حقيقة هذا الرجل انه (خوزيه نافارو) اخطر اشقياء (اندلوسيا) طراً. لم اكف عن ملاحقتك بغمزاتي وايماأتي طول النهار كأنك لم تدركها!

فأجبته:

- سواء لدي اشقياً كان ام غير شقي فهو لا يبيت لنا شراً ومادام لم يعمد الى سلبنا فأمره لايعنيني في شيء.
- هذا من حسن الصدف ليس الا. لكن الجائزة التي وضعت للقبض عليه تبلغ مائتي «دوقيةDucat»[٦] وان مخفراً لجنود الخيالة يقوم على بعد فرسخ ونصف فرسخ من هذه البقعة. اني ذاهب وسأعود قبيل انبلاج الفجر بكوكبة من الفرسان الاشداء لكم حاولت اخذ جواده لكنه جموح لا يسلس قياده الا لصاحبه «النافارو».
- اي شيطان ركبك؟ بم اساء اليك هذا الرجل المسالم لتشي به؟ ثم كيف وثقت بانه الشقي المطلوب؟
- واثق تماماً. فلقد تبعني الى المربط بعد برهة وقال لي:

٦- عملة اسپانية ذهبية قديمة تعدل ديناراً او ليرة.

«اراك عرفتني! ألا اكشف أمري للسيد وسأحطم رأسك برصاصة واحدة»! فابق معه يا سيدي. نم الى جنبه ولاتخش شراً. انه لن يرتاب في شيء ما دمت قربه.

وسرنا شوطاً ونحن في جدال حتى ابتعدنا عن الفندق وتعذر وصول صوت اقدام الجواد، وهنا انتزع انطونيو الخرق التي لفها حول حوافر الجواد وتهيأ لامتطائه وعيناه تبرقان. حاولت ان اثنيه عن عزمه بالوعد ثم بالوعيد، بالرجاء ثم بالتهديد فلم يفد فيه وقال:

- انا شيطان فقير ياسيدي! كيف ادع مائتي دوقية تفلت من يدي وخصوصاً ان كان في ذلك خلاص البلاد من جراثيم خطرة؟ لكن حذار ان يستيقظ النافارو. انه سيفزع الى سلاحه باسرع من لمح البصر ويهجم عليك، فكن يقظاً حذراً. خادعه، راوغه ما استطعت وبذلك تأمن على نفسك، اما انا فقد قطعت في مغامراتي هذه شوطاً بعيداً حتى غدا النكوص عنها ضرباً من المحال فتدبر أمرك.

قال هذا وامتطى صهوة جواده هذا الوغد! أعمل مهمازيه في خاصرتيه فانطلق به يسابق الريح، وما هي لحظة حتى غاب عن بصري وابتلعه الظلام.

تميزت غيظاً واشمأزت نفسي من فعلة دليلي النكراء، وبعد تفكير ملي رجعت الى الفندق لاجد دون خوزيه يغط في نومه يريح جسمه من عناء ايامه الخوالي ولياليه الحافلة بالمغامرات

والسهر المتواصل، فما كان مني الا هززته بعنف حتى استيقظ، لن انسى ما حييت النظرة الوحشية والحركة العنيفة التي بدرت منه للوصول الى سلاحه (كنت قد احتطت لهذا، فابعدتها عن عدله قليلاً) ابتدرته قائلاً:

- ايها السيد، اني اعتذر لايقاظك، فثم فكرة سخيفة تدور في خلدي، ما رأيك في «جريدة»[٧] فرسان تداهمك وتطبق عليك هنا؟ الا ترى في هذا امراً ذا بال؟

فاستوى على قدميه وصاح بصوت كالرعد:

- من أنبأك بهذا؟
- ماذا يهم مصدر النصيحة ان كانت هي صادقة بحد ذاتها؟
- دليلك هو الذي وشى بي، لكنه سيدفع ثمن الوشاية. اين هو؟
- لست ادري واظنه في الاسطبل، لكن شخصاً اخبرني بـ....
- من؟ من؟ لا اخالك تقصد هذا العجوز؟
- شخص لا اعرف هويته. ومجمل القول: اترغب ان تقع في ايدي الجنود؟ ان كان جوابك سلباً فالوقت ثمين، اني اودعك واكرر اعتذاري لايقاظك.
- آه.. انه دليلك. لقد ارتبت به من اول اللقاء وسأدعه يدفع ثمناً غالياً. استودعك الله يا سينور وليجزك عني ما

٧- عملة اسپانية ذهبية قديمة تعدل ديناراً او ليرة.

غمرتني به من فضل. اني لست شريراً بالدرجة التي تظن، أجل.. لابد وان في قرارة نفسي شيئاً يجعلني استحق عطف انسان نبيل مثلك. الوداع يا سينور وان كنت آسفاً، فعلى شيء واحد هو عجزي عن ايفائك حتى هذه الخدمة.

- أما عن الوفاء يا دون خوزيه، فارجو ان تعدني بالا ترتاب في احد، والا تفكر في الانتقام. لكن مهلاً، دونك هذه اللفافات استعن بها على رحلتك.. واتمنى لك سفرة سعيدة.

قلت هذا ومددت يدي فتناولها وشد على يدي صامتاً ثم احتقب سلاحه ورفع خرجه وتبادل كلمات قليلة مع العجوز بلغة شق عليّ فهمها ثم هرع الى مربط الخيل. وبعد دقائق، سمعته يخب جواده فوق الارض البراح فعدت واستلقيت على المصطبة وراودت الكرى فعصيني. طفقت أسأل نفسي: اخيراً فعلت بانقاذي لصاً، وربما قاتلاً، من حبل المشنقة لا لشيء سوى اني اكلت معه لحماً وارزاً مطبوخاً على الطريقة البلنسية؟ الم اوقع بدليلي الذي اراد صيانة القانون والامن؟ ألم اجعله هدفاً لانتقام احد الاوباش؟ لكن واجب الضيافة؟ غريزة الانسان البدائي؟ قلت لنفسي: الا تقع في عنقي مسؤولية كل الجرائم التي سيرتكبها هذا الشقي؟ لكن اليس هو الميل الفطري والهوى الغريزي الذي يتحدى احكام العقل؟ ربما لم اكن استطيع انقاذ نفسي من المسؤولية، وتبكيت الضمير في هذه المسألة الوجدانية!

بقيت هكذا متذبذباً متأرجحاً بين الشك واليقين في طبيعة